السيميائيات، الحجاج والبلاغة الجديدة
مقاربة في المرتكزات الابستيمية

أ.أمال قاسيمي
جامعة الجزائر3

ملخص

يسعى المقال إلى إلقاء الضوء على موضوع السيميائيات والحجاج والبلاغة الجديدة، مع إبراز العلاقة التي تربط بينها، مع العلم أنها مواضيع متشعبة ومرتبطة ببعضها البعض وكان ظهورها متكامل أين عمل الباحثون على دراستها والبحث عن دلالتها في المجال اللساني والمجال البصري، حيث نجد دراسات عن البلاغة الجديدة كما نجد دراسات عن السيميائيات وعلاقتها بمضمون الحجاج، وعليه سنحاول في فحوى هذا المقال العلمي ان نتطرق الى العلاقة الكامنة بين هذه المواضيع وذلك وفق مقاربة في المرتكزات الابستيمية.

الكلمات المفتاحية: السيميائيات، الحجاج، البلاغة الجديدة.

Abstract:

The article aims at shedding light on the subject of semiotic argumentation and the new rhetoric and showingthe relationship between them, knowing that these topics are complex and related to each other and their appearance was integrated where the researchers worked on the study and search for their significance in the field of language and visual field, where we find studies on the new rhetoric As we find studies on the Semiotic and their relationship to the content of pilgrims, and therefore we will try in the content of this article to discuss the relationship between the argumentation topics, according to an approach in the platforms abstime.

Keywords: Semiotic, argumentation, New Rhetoric

مقدمة:

تمثل السيميائيات معرفة علمية متشعبة تبحث في تشكيل الأنظمة العلاماتية وتحليلها بقصد التبليغ وإقامة اتصال، كما أنها العلم الذي يتخذ من أنظمة العلامات موضوعاً له، سواء كانت هذه العلامات لسانية، لغوية او حتى ايقونية، ولكون الحجاج يرتكز بصورة مكثفة على الأدوات اللسانية فهو بذلك يجعله في علاقة بميدان السيميائيات المحايثة التي تكاد تندرج متصوراتها ضمن علوم اللغة وفلسفتها، وعلى اعتبار كذلك أن السيميائيات معرفة عابرة لتخصصات عديدة مثل: اللسانيات وتحليل الخطاب وعلم الأسلوب والبلاغة والتداولية، وأنظمة التواصل المختلفة اللغوية وغير اللغوية، فان هذا المجال يطرح عدة إشكاليات تلزمنا بسرد أهم النظريات المنظمة لهذا التداخل بين هذه المفاهيم (البلاغة، السيميائيات والحجاج).

اولا: السيميائيات والبلاغة الجديدة

لقد استكشفت الفلسفة بعامة والسيميائيات الحديثة بخاصة ثراء المعرفة البلاغية بوصفها إنتاجا فكريا إنسانيا مفتوحا على عوالم اللغة، سواء أكان ذلك على صعيد الطرح النظري أم على صعيد الطرح التطبيقي، مما خلصها من الثنائية التي كانت محصورة فيها بين نزوعها إلى المنطق والجدل وميلها إلى الشعر ومن ثم إلى فن الكتابة، بينما أصبحت نظرية الخطاب قوام البلاغة الجديدة التي حاولت ان تستثمر السيميائيات التداولية وكذا التأويلات التي ترتكز على الفلسفة الفينومينولوجية، ان لكل فلسفة بلاغتها الخاصة من حيث هي خطاب مرتبط بشرط المواضعات الاجتماعية والتراكمات المعرفية.

انكبت البلاغة الجديدة من وجوه على مدارسة آليات الخطاب الاجتماعي العام وفعاليته العملية،[1] ومن هنا وجدناها تلتبس التباسا واضحا بالحقل الذي تشتغل عليه التداوليات، إن هذا التيار البلاغي الجديد وجد ضالته أول مرة في العصر الحديث لدى فلاسفة القانون، إذ أراد أن يحقق ما عجز عنه المنطق لما بدأت تغلب عليه شقوة الصورة المغلقة وبعد الشقة بينه وبين الواقع، فولى ظهره للانشغال بالممارسات العملية لهذا وجدنا الفلسفة التحليلية تعتني غاية ما يكون الاعتناء باللغة العادية وتربط الكلام بالفعل، وهي بهذا تحدث انعطافا حاسما في تاريخ فلسفة اللغة الحديث الذي هو من وجه أخر تاريخ متنوع وخصب لعلم الخطاب بمناحيه المختلفة المنطوقة والمكتوبة والمرئية.

أعطى شارل بيرلمان دفعا كبيرا للبلاغة فأعاد لها الروح من جديد وذلك بالعودة إلى بلاغة أرسطو ثم صارت تعرف على يديه بالبلاغة الجديدة التي انبثقت زمنيا قبل البنيوية.

فبحوث البلاغية الجديدة عرفت النمو منذ نهاية عقد الخمسينيات من القرن العشرين عبر ثلاثة أفاق متجاورة ومتتالية وان كانت متباينة في أهدافها وبرامجها، فقد شهدت ظهورا على فترات عدة اذ:

- ولد مصطلح البلاغة الجديدة عام 1958 في عنوان احد الكتب الشهيرة التي وضعها بيرلمان Perelman تحت اسم مقال في البرهان: البلاغة الجديدة ويعتمد هذا الكتاب على محاولة لإعادة تأسيس البرهان او المحاجة الاستدلالية باعتباره تحديدا منطقيا كتقنية خاصة ومتميزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب والايديولوجيا بصفة عامة حتى انتهت في أخر عقد الثمانينيات إلى ما يطلق عليه أزمة الشكلانية والطبيعية الجديدة، ويلاحظ عموما على مبادئها أنها تدور حول وظيفة اللغة التواصلية وأنها ليست منبتة الصلة بالتقاليد البلاغية الكلاسيكية على اعتبار أن منظر الخطاب البرهاني يهتم بدوره بالأشكال البلاغية كأدوات أسلوبية ووسائل للإقناع والبرهان[2]
- أما التيار الثاني في البلاغة الجديدة فقد نشا في منتصف الستينيات من القرن الماضي وامتد مشروعه خلال العقدين التاليين، ولم تكن له علاقة تذكر ببلاغة بيريلمان، وقد ولدت البلاغة الجديدة في حضن البنيوية النقدية ذات النزوع الشكلاني الواضح ويمثلها باحثين أطلق عليهم البلاغيون الجدد، معظمهم في فرنسا مثل "جيرار جينيت" و"جان كوه" و"تودوروف" ويلتقون في كثير من مبادئهم وانجازاتهم على الدراسات المجازية واللغوية في الثقافة الانجليزية والأمريكية على اختلاف في المناهج والغايات، غير أنهم يستمدون أفقهم العرفي من تيارات تحديثية تتزامن مع حركات تجديد أخرى مثل النقد الجديد والرواية الجديدة والسينما وكلها تمثل ظواهر متقاربة في منبعها ومصبها.[3]
- ويأتي الاتجاه الثالث لتحليل الخطاب في منهج وظيفي مجاور للاتجاه البنيوي ومعتمد على السيميولوجيا من ناحية والتداولية من ناحية أخرى، وقد تحول إليه في نهاية السبعينيات بعض أنصار التيار الثاني كما فعل تودوروف والذي اعترف عام 1979 بان السيميولوجيا يمكن أن تفهم باعتبارها بلاغة معاصرة، وقد اتضح أن مفهوم بلاغة

الخطاب مرهون بالاعتداد بها كعلم لكل أنواع الخطاب، علم عادي في موضوعه وفي منهجه مهما اختلفت الأسماء التي تطلق عليه، إذ إننا نجد من يسميه النحو العادي للخطاب في مقابل من كان يحصره في الخطاب القضائي أو الأدبي، وبالرغم من تنوع مادة الخطاب إلا انه سيظل هناك فن شكلي عام قابل للتطبيق على بلاغة الخطاب.[4]

وإذا كانت مرحلة الحداثة وما قبلها قد ارتبطت بسحر الكلمة وفعاليتها فان ما بعد الحداثة ترتكز على فعالية الصورة وتعتمد عليها بوصفها اداة رئيسية للتواصل والتأثير في الأخر، وعليه فالاهتمام والسيادة لم تعد وقفا على جلال العلامات اللسانية بل أصبحت الأنساق السيميائية الدالة، الموضوع الأثير للسيميائيات الذي يجمع أنماط العلامات المختلفة، حيث انفتح الواقع الإنساني على فضاء الحوار الذي أتاحه سبل التواصل الميسورة، مما أدى إلى عودة أدب المناظرة فازدهر عصر المحاجة غير ان الحجاج لم يعد يكتفي بالوسائل التقليدية في بسط حججه، فاستعان بالسنن التي توفرها عوالم الصورة اذ انخرطت ثقافة العين انخراطا بصريا في أدب الإقناع وفي ظل شفوية جديدة بسطها مجتمع ما بعد الحداثة.

ولما كان حد البلاغة العام يتمثل في فن القول وفن الإقناع الذي املته مجتمعات الحداثة وما بعدها بالترسانة الضخمة لوسائل الإعلام والاتصال، اذ لم تخرج مقاربات البلاغة عن إطار التحليل السيميائي للخطاب الذي يسعى إلى البحث عن كلياته وقوانينه وأنساقه ومعرفة أجزائه، بحيث يتم تقطيع الوحدات الخطابية تقطيعا يحاكي الإجراء اللساني الوصفي ويتجاوزه في الآن نفسه لأنه يتعدى حدود الجملة، ومن هذا المنطق تم النظر الى البلاغة على أنها فرع من الخطاب إن لم يكن نظرية للخطاب، إذ نجحت في تركيب بعض الآليات المنهجية التي تتقاطع معها مثل اللسانيات والأسلوبيات والشعريات والسيميائيات على وجه التحديد بحيث يتسع حقلها الإجرائي إلى جميع المجالات الأدبية.

وتصبح البلاغة هنا مرادفة للسيميائيات من حيث هي هندسة ذهنية لعوالم اللغة والفكر، إن خطاب الإقناع لا يعني فقط إجراء سبر استقرائي والقيام بعمليات حسابية ولكن يضاف إليها بسط الحجج، وهكذا غدت البلاغة الجديدة حجاجية في منطقها وعمومية في متصوراتها وبرهانية في حقيقتها، فهي تقتدي من وجوه بمسارات اللسانيات من حيث انها لا تكتفي بالوقوف على بلاغة لغة بعينها، وانما تطمح لوضع قوانين عامة تشمل جميع الأنساق السيميائية الدالة بوصفها لغات، هل ما يحصل للبلاغة هو مجرد تجميل وزينة لتواكب حركة

التغيير الجذرية في خطاب الحداثة ام هو فعل ذو خصيصة انقلابية في المفهوم والإجراء وهل يمكن أن يساورنا بعد ذلك بعض الشك في الدعوى التي أذاعها ش.بيرلمان من إن البلاغة ما هي إلا حجاج.

ولا غرو أن البلاغة كانت تتضمن طاقة حيوية في داخل أبنية خطابها سرعان ما توارت في سيرورة الإتباع فنضبت طاقتها الحيوية بفعل الاجترار الذي يعود إلى السياسة والتعليم على وجه التحديد، وعليه فان البلاغة الجديدة لا يمكن النظر إليها على أنها عملية طلاء لوجه انهكته السنون وأفسده الدهر، وإنما حركة تنوير في المفاهيم لتطاول سائر المجالات الاجتماعية وتغدو علما وصفيا يرنو إلى المستقبل ويتسع لجميع الخطابات متخليا عن الروح المعيارية التي ألجمت جموحه الإبداعي.

إن إنتاج الدلالة يعتبر سيرورة إيديولوجية وهو ما انكبت على دراسته جوليا كريستيفا إذ الإيديولوجية وبلاغتها لا مأوى لها سوى فضاء العلامات واليات تناسلها، وعليه عدَت السيميائيات التحليلية هي علم الايدولوجيا لأنها تقتحم كل موضوعات ومجالات المجتمع والفكر، مما يؤهلها لدراسة قضايا العلوم الاجتماعية والبحث عن قرابتها مع الخطاب الابستيمولوجي،[5] وما يدعو إلى التأمل هو كيف تم استثمار البلاغة القديمة لكي تعالج مسائل متعلقة بخطاب الحداثة ونعني به بلاغة الصورة التي أصبحت في منفصلة عن إشكالات المعنى، بيد أن الطرافة في ذلك كما يرى روبول[6] تتناول هذه الإشكال الخطابية وفق منطلقات لغوية بالمفهوم القديم ولسانية بالمفهوم الحديث، ولا غرو أن يراهن بيرلمان على بلاغة أرسطو لكونها ذات مصداقية حجاجية فعالة في المجتمعات الديموقراطية.

هناك من لا يعتقد بان البلاغة كانت في يوم من الايام نسقا مستقلا بنفسه وإنما كانت على الدوام تجربة تأملية حول الكلام، ولعل ذلك ما دفع ايكو[7] إلى القول أن السيميائيات التطبيقية لا يتعلق مشكلها بمدى عمليتها أكثر مما يتعلق بقوة إقناعها البلاغي وفاعلية فهم النص والقدرة على جعل الخطاب نص معطى قابلا للمراجعة في ظل تداخل الذوات في أثناء عملية النشاط التأويلي.

ثانيا: السيميائيات والحجاج

لقد عرف الحجاج تاريخا حافلا بالالتواءات، ومضامينه متعددة المداخل وخلفياته المعرفية متباينة المشارب، لذا كان محل اهتمام وبحث منذ فجر الحضارات القديمة لدى الإغريق والرومان والمسلمين والأمم الأخرى، ثم ما لبثت البلاغة التي كانت له مسكنا والتي عرفت انقطاعات متتالية في الثقافتين العربية والغربية، ثم شهدت ميلادا جديدا، ان تتربع على مساحات البحوث لدى اللسانيين واللغويين بداية بأرسطو الذي كان يرادفها بالخطابة ومرورا بالإسهامات البلجيكيّة لكلّ من (بيريلمان: Perelman) و(جماعة مو: GroupeMu) وهي الأعمال التي كان لها أثر في تجدّد البلاغة، وصولا الى ابحث رولان بارث وجاك دوران اللذان قاما بربطها بالخطابات البصرية، أين وجدت الأرضية للاحتكاك بعلم السيميائيات.

قبل الحديث عن العلاقة الكامنة بين الحجاج والسيميائيات نحاول ان نلخص مفهوم الحجاج وعلاقته بالاتصال.

البنية المعجمية والمفاهمية للحجاج

الحجاج لغويا:تجمع المعاجم اللغوية الأساسية في تعريفها للحجاج على ما جاء في لسان العرب لابن منظور "يقال حاججته أحاجه حجاجا ومحاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها...والحجة، البرهان، وقيل الحجة ما دفع به الخصم، وقال الازهري الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة.[8]ويقابل هذه اللفظة في الفرنسية لفظة Argumentationالتي تدل على معاني متقاربة أبرزها حسب قاموس Petit Robert[9]، التي تعني "القيام باستعمال الحجج"، "مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة" .أما قاموس كمبريج Cambridge فيعرفه بأنه: "الحجّة التي تعلل أو تبرر مساندتك أومعارضتك لفكرة ما..."."[10]

أما في الإنجليزية فيشير لفظArgue إلى وجود اختلاف بين طرفين ومحاولة كل منهما إقناع الآخر بوجهة نظره ؛ بتقديم الأسباب أو العلل Reasons التي تكون حجة Argumentمع

أو ضد فكرة أو رأي أو سلوك ما[11]. ويمكن من هذا التحديد الدلالي اللغوي استنتاج النقاط التالية: [12]

- أن الحجاج يهدف إلى تأسيس موقف ما، ومن هنا فهو يتوجه إلى متلقٍ، إنه يبحث دائما لأخذ قبول وموافقة ذلك المتلقي.
- أن الحجاج يعتمد على تقديم عدد كبير من الحجج مختارة اختيارا حسنا ومرتبة ترتيبا محكما، لتترك أثرها في المتلقي، وهذه الخاصية تجعله يتميز عن البرهنة. [13]
- أن الحجاج يتعلق بالخطاب الطبيعي من جهتي الاستعمال والمضمون، فهو ذو فعالية تداولية جدلية.
- أن الحجاج يهدف إلى جعل العقول التي يتوجه إليها تنخرط في الأطروحة أو الدعوى.
- أن مجال الحجاج هو مجال الاحتمال وليس مجال الحقائق البديهية المطلقة

الحجاج اصطلاحا: وإذا ما تحدثنا عن تحديد مفهوم الحجاج اصطلاحا نجده يندرج في ما يسمى بالبلاغة، والخطابة، وفن الإقناع، وكثيرا ما ورد في الثقافتين الغربية والعربية بمعنى الجدل والتناظر والإلقاء، وما إلى ذلك، انطلاقا من مؤلّفات اليونان إلى أهم ما ورد عند العرب في هذا الشأن. ولم يعد من السهل بإمكان تحديد المعنى الدقيق النهائي للحجاج بالنظر إلى أنه يرتبط بعدة ميادين علمية ومجالات معرفية عدة: فلسفية، منطقية، بلاغية، لسانية (الديالكتيك، التداولية...)، وحتى النفسية والاجتماعية ونظريات التواصل الحديثة، وكل موقع من هذه المواقع يتناول جانبا معينا من الحجاج على حسب منطلقاته الفكرية وتطبيقاته المنهجية.

فمثلا نجد في منظور بعض هذه الكتابات أن الحجاج أو التدليل يشيران إلى ذلك الخطاب الصريح أو الضمني الذي يستهدف الإقناع والإفحام معا، مهما كان متلقي هذا الخطاب، ومهما كانت الطريقة المتبعة فيه ذلك.

وهذا المعنى هو الذي يأخذ به أبرز منظري "نظرية الحجاج " المعاصرة* كشايم بيرلمان Ch.Perelmanوميشال ماييرM.Meyer، حيث يقول هذا الأخير: " يعرف الحجاج عادة بكونه جهدا اقناعيا (افحاميا) ويعتبر البعد الحجاجي بعدا جوهريا في اللغة لكون كل

خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجه إليه.[14] وهو كذلك تبادل محادثاتي حول آراء مختلفة أو متناقضة ، ومنطقها يتأسس على استراتيجيات محادثاتية مبنية عن طريق موضوع ما [15] .

وجوتييه Gauthier من جهته يرى أن الحجة تشكل علاقة مفصلية بين أطروحة ومبرراتها أو بين حكم وقاعدته.[16]

والحجاج عند بيريلمان Perelman وتيتيكا Tyteca طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد الى استمالة المتلقين الى القضايا التي تعرض عليهم أو الى زيادة درجات تلك الاستمالة .[17] وإذا عدنا إلى إعطاء تعريفات شاملة للحجاج نجد مثلا Vignaux يرى أن الحجاج معناه " ... الدفاع عن وجهة نظر وفي نفس الوقت محاولة إشراك الآخرين فيها ، بمعنى آخر اختيار كلماته وتنظيمها في شكل خطاب من أجل (أو بنية) دفع الآخرين إلى تبني أفكار وقناعات...الحجج – بالنسبة لنا – تشكل براهين ، مدلولات ، والتي تأخذ تظهر شكلها – من جانب آخر – من هذا التجميع للكلمات المنتظمة في شكل جمل مرتبة ، والتي نسميها " خطاب[18]."– إذن – لا يمكننا تصور محاججة بدون خطاب.

يرى بروتون Breton أن "المحاججة هي وسيلة لتقاسم رأي ما مع الغير وهي بعيدة عن ممارسات العنف الإقناعي مثلما تبتعد عن أساليب التضليل وحتى البرهان العملي، إنها تمثل نوعا خاصا، يدخل في إطار عائلة الأفعال الإنسانية التي هدفها الإقناع اليقيني"[19] وهي كذلك مسعى من خلاله يباشر شخص أو جماعة في جلب الملتقى إلى التكيف مع وضعية عن طريق الرجوع إلى مقدمات أو استخدام حجج تستهدف إظهار الصدق.[20]

يعني هذا أن المحاججة هي عملية كسب تأييد فرد أو مجموعة أفراد لفكرة ما أو رأي معين وهذا بالاستعانة بأساليب تمثل في غايتها حجج تدعيمية (تعزيزية) لذلك فالمحاججة ليست ببساطة أن ننقل فكرة ما أو رأي، إنما هي أكثر من ذلك، أن نعلل وأن نبرهن على ما نؤكده.[21] بمعنى عدم الاكتفاء باشتراك في رأي أو فكرة إنما يستهدف من وراء ذلك القصد إلى الإقناع عن طريق حجج واضحة ومسار أوضح لفن المحاججة الذي لا يفترض فقط استدلالات ووقائع وأمثلة ملفوظة من خلال نص معين من أجل البرهنة على رسالته كما يرى جودبوت Goudbout.[22] بل أكثر من ذلك فإنه يتطلب اتفاق من نتوجه إليهم على مجموعة من المعطيات هذا الاتفاق يمكنه أن يخدم كنقطة بداية إتفاقات لاحقة.[23]

كما يمكن تعريفه في جانبه الاتصالي بأنه ذاك الاتصال الذي يهدف إلى إقناع المتلقي بأهمية أو صحة رسالة المرسل باستعمال حجج بينة تضمن هذا الغرض، ولعل الفرق بين هذا النوع من الاتصال وبين باقي الأنواع منه يكمن في الوسائل والأهداف المسطرة حيث أن النوع الأول لا يهدف إلى –فقط– نقل المعلومات وتبادل آراء وأفكار بين مرسل ومستقبل بل أيضا –وهذا هو الفارق– القصد والنية في مضمون الرسالة لأحداث الإقناع بأسلوب المحاجة لكن السؤال الذي يطرح نفسه –في هذه النقطة– هو: ما العلاقة بين الحجاج والتواصل، وهل كل تواصل حجاج ؟

لقد أثبتت الدراسات الحديثة في مجال البحث اللساني أن التواصل الحجاجي يتبع آليات العملية التواصلية نفسها، وهو ما أكده "**أوليرونOléron**" فعن طريق المحاجة تحاول أن تنقل عناصر معينة، غرضها خلق أو توكيد قناعات وترتيبات وذلك للتصرف في المواقف، بقصد الإقناع وليس ببساطة إثراء معارف المتلقي.[24] فالتواصل الحجاجي ليس هو التواصل المبني على نقل المعارف بين المتكلم والمتلقي بل عالم يتفاعل فيه كلا الطرفين، فاللغة هاهنا ليست مجرد أداة للتواصل والتخاطب فحسب، بل للتفاعل بين المعارف –المتكلم والمستمع– وهذا البعد التداولي للغة ينبغي استحضاره لفهم الكثير من القضايا المرتبطة بالنشاط اللغوي، وفي هذا الإطار حاول (بيرلمان) في كتابه "مصنف في الحجاج" حيث اهتم بظاهرة جديدة في التواصل، يكون فيها الهدف تأسيس بناء فكري عميق تندمج فيه أبعاد المتكلم والمستمع والمقام[25]، إلا أن عناصر العملية الاتصالية في حالة الاتصال الحجاجي لا يمكن وضعها في الإطار الضيق لمخطط الاتصال العادي "فنقل المعلومة على طول الوسيلة ليس له نفس الطبيعة مع تشكيل رأي ونقله نحو المخاطب لذلك لا بد علينا أن نفكر في مخطط اتصال يوائم (Ad hoc) حالة المحاجة"[26].

لذلك علينا في حالة اعتبار المحاجة كوضعية للاتصال –أن نميز بين المستويات التالية من خلال ما يسميه **بروتون** Breton "بالمثلث الحجاجي Triangle argumentative".

* **رأي الخطيب:** يدخل في إطار المحتمل أو ما يسمى بالقريب من المعقول، الذي يتعلق برسالة، بفكرة بوجهة نظر، هذا الرأي يوجد كما هو بمعنى قبل أن يحول إلى حجة، حيث يمكن أن يكون لدينا رأي ونحتفظ به لأنفسنا ولا نبحث عن إقناع الآخرين به.

* **الخطيب:** الذي يحاجج لنفسه أو للغير (في هذه الحالة الأخيرة فإن عقد الاتصال يجب أن يكون صريحا مثلا وكنموذج "المحامي" الذي يحاجج من أجل موكله).

* **الحجة التي يدافع بها الخطيب:** يتعلق الأمر بالرأي المهيأ للإقناع والمندس في استدلال حجاجي، الحجة في هذه الحالة يمكن أن تقدم كتابيا (في كلمة، في رسالة، في كتاب) أو شفويا بصفة مباشرة أو غير بماشرة (على سبيل المثال: الراديو أو الهاتف) أو بالصورة.

* **المخاطب:** الذي يريد الخطيب إقناعه بالرأي المقترح ممكن أن يعني: شخص، جمهور، مجموع جماهير، أو شيء آخر.

* **سياق الاستقبال:** يضم مجموع الآراء، القيم والحكام التي يتقاسمها مع المخاطب والتي تمثل مقدمة لفعل المحاجة، ومنتظر منها أن تلعب دورا في استقبال الحجة، في قبول المخاطب، أو رفضه أو تأييده المتغير (المنقلب) الذي سيجذبه. والمخطط رقم 5 يبين ذلك.

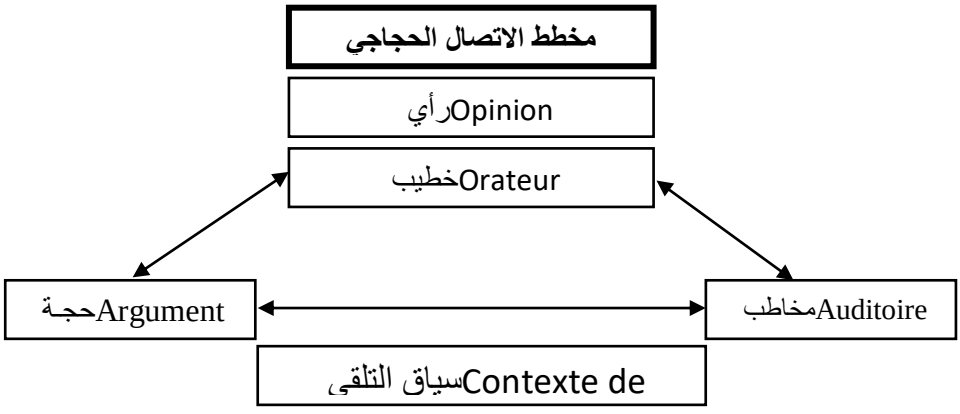

المصدر: Philippe Breton, p20, 1998

من خلال هذا المثلث الحجاجي نفهم أن الاتصال الحجاجي يعني سيرورة نقل رأي ما من خطيب إلى مخاطب، في شكل استدلال حجاجي لغرض تغيير (أو تحديث) سياق الاستقبال (آراء المخاطب).

فالحجاج هو إستراتيجية تواصلية تسعى إلى التأثير في الآخر بالاعتماد على تمثلات حجاجية تكون في شكل أفكار وآراء، وذا المعنى يصبح الحجاج شكل أو نظام تواصلي يتفاعل فيه ما هو لفظي بما هو غير لفظي وسيلته اللغة، وغايته الإقناع، كما يمكن قراءة من خلال هذا المخطط بأن فعل الحجاج يتضمن مرحلتين متتابعتين.

المرحلة الأولى: أين الخطيب يعدل سياق التلقي للمخاطب بهدف تهيئته لاستقبال الرأي المقترح.

المرحلة الثانية: أين الخطيب يحاول نسج رابط قوي بين سياق التلقي المعدّل والرأي المقترح.[27]

وبالتالي فالخطاب الحجاجي موجه للتأثير على آراء المخاطب وسلوكياته، وذلك بجعل أي قول مدعم صالحا آو مقبولا (النتيجة) وذلك بمختلف الوسائل بالنظر إلى قول أخر (الحجة والأسباب)،[28] وعليه يمكن ان نقول ان الحجاج هو العملية التي من خلالها يسعى المتكلم الى تغيير نظام المعتقدات والتصورات لدى مخاطبه بواسطة الوسائل اللغوية.[29]

وفي منظور بعض من الكتابات الحديثة يعني ذلك الخطاب الصريح او الضمني الذي يستهدف الإقناع والإفحام معا، مهما كان متلقي هذا الخطاب ، ومهما كانت الطريقة المتبعة في ذلك، ومن بين اهم منظريه نجد شاييم بيرلمان CH . Perelman، ميشال ماييير M . Meyer، جان ميشال آدام Jean MichelAdam، رولان بارت R . Barthes، وفي هذا المجال يطلق رولان بارث مصطلح الابتكار على المحاججة، او ما يسميه ابتكار الحجج، او طريق المحاججة، أي العثور على الشيء الموجود مسبقا.[30]

ثالثا: علاقة السيميائيات بالحجاج

اعتمادا على ان البلاغة ترتكز على فن القول والإقناع الذي املته مجتمعات الحداثة وما بعدها، اذ لم تخرج مقاربات البلاغة عن إطار التحليل السيميائي للخطاب، وبذلك يمكن رصد العلاقات المتداخلة بين الحجاج والسيميائيات بخصوص قضايا الحساب والخطاب التي تمثل فحوى بحوث البلاغة الجديدة، فالنظرية السيميائية المحايثة تعده موضوعا للدراسة أو وحدة للتحليل، وتبدو الصلة واضحة بين السيميائيات والحجاج في البحث عن طرائق تكوين الخطاب وتحقيقاته وأساليب عمله.

إن المتأمل في طبيعة التمفصل بين السيميائيات بوصفها جبرا للعلامات والحجاج بوصفه ممارسة خطابية يلفي لها بعض الحضور كما هو الشأن في السيميائيات تعميما والسيميائيات السردية تخصيصا، اذ يقدم بعض السيميائيين مطارحة فحواها انه بالقدر الذي نستطيع فيه معالجة الخطاطة السردية المناسبة فانه بالإمكان ان نقدم بخصوصها مقاربة حجاجية تنضوي فيه السردية داخل الخطاطة الحجاجية .[31]

لقد عرف ازدهار البحوث المعرفية بروز عدة أسئلة حول النظرية السيميائية وهي في طور البناء، ولعل ما يخدم بحثنا هو منزلة الحجاج وإنتاج المعنى التي نقف عليها في تحليل الخطاب، فهل الحجاج يبقى آلية وصفية ذات طبيعة محايثة أم انه ينحاز إلى سلطة السياق؟ هنا وجدت السيميائيات نفسها امام خيار صعب عندما يتعلق الأمر بإنتاج المعنى وتأويله؟ وهو ما زاد من حدة وصعوبة انفتاح السيميائيات على الانساق السيميائية الدالة غير اللفظية، كالسينما والموسيقى والإشهار وحركات الجسد ولغته أي كل ما كان له علاقة بالخطاب البصري المتحرك والثابت، بعدما عرفت النشأة في أحضان الخطابات السردية، اين انصب بحثها على تحليل الخطابات الشعرية، والمقالات الأدبية...الخ، وكل هذا التحول والانتقال راجع للبحوث والاجتهادات التي قام بها السيميائيون واللغويون حين قاموا بتوسيع مجالات تطبيقها على جل الخطابات.

إن هذا الأمر زرع نوعا من الخوف لدى السيمائيين الذين كانوا يخشون من إدماج البلاغة والحجاج في النظرية السيمائية، لأنها لا تنتظم انتظاما يسيرا مع جهاز مفاهيمها، وبخاصة

الذين ينطلقون من متصورات وضعانية تأخذ بأسباب المنطق السيميائي على انه جبر من العلامات ينظم الفكر تنظيما حسابيا، ولهذا لمحنا تخوفهم من موضوعات الأسلوب والتلفظ، ولكنهم وبعد زيادة معارفهم ادمجوا موضوع التلفظ في تفسير المعنى وتحليل الخطاب، وصار البعد البلاغي لا يغيب عن حسبانهم، ولكن دون ان يحيل الاهتمام بالممارسة التلفظية إلى أي نظرية تطبيقي،رغم انه قيل أن البلاغة ماتت وأفسحت المجال لعلوم أخرى كالأسلوبية[32]Stylistiqueوالشعرية[33]Poétique، لتتربع على عرشها. إن الذي حدث في أوروبا هو أن الدرس البلاغي لم يهمل على الرغم من أنّه لم يعد قادرا على اعتلاء عرشه السابق وتلبية متطلبات التعبير النثري والشعري الجيد، ومنذ أن اتخذت أبحاث اللغة شكل العلم وسلكت مناهج وطرقا جديدة في الكتابة ظهرت الحاجة إلى إيجاد تفسير جديد للصور البلاغية، لأن التفسير القديم قد أصبح كما يقول: تودوروف tezvetan Todorov في كتابه الأدب والدلالة بلا جدوى[34] . وكان ظهور الدراسات الأسلوبية المعتمدة في جانب كبير منها على اللسانيات البنيوية linguistique structural التي جاء بها فرديناند دي سوسور Ferdinand dessaussure هو الرافعة التي انتشلت البلاغة من الوهدة التي سقطت فيها، بحيث صارت الدراسات الأسلوبية التي طورها تلميذ دي سوسير شارل بالي ballyCharles وأتباعه بديلا عن الدراسات البلاغية، وهذه الأسلوبية تستند إلى قواعد معرفية تتمثل في تعريف الناقد الفرنسي بيير جيرو Pierre Guiraud للأسلوبية بوصفها "دراسة للتعبير اللساني" [35] . وبهذا يتحدد كما يقولون تشغيل آلية المنهجية الأسلوبية بوصفها الوجه الجديد للبلاغة أو هي البلاغة الحديثة نفسها.

إن الحديث عن العلاقة بين الحجاج والبلاغة وفعاليتها في النظرية السيميائية يستلزم إعادة قراءة ومراجعة ابستمولوجية لفرضيات السيميائيات، آو بمعنى أخر محاولة فتح مجال البحوث أمام الظواهر والدراسات التي تمكن من فهم قوانين الأنساق السيميائية الدالة وتفسيرها وتأويلها، وذلك حتى لا تبقى المعرفة محصورة على مجال واحد وحتى يتم تطوير الجوانب الخفية غير المعروفة في النظرية كما يطور مفاهيمها واليات تحليلها، وبما إن الحجاج يعني التأثير والإقناع والجدل وحتى البرهنة عبر سيرورة الدلالات المفتوحة من التعابير الخطابية المتنوعة، فهو بذلك يمكن أن يعالج بوصفه مضمونا سيميائيا معالجة تتصف بالشمول، وعلى هذا الأساس يتم عملية ادماج المعطيات الحجاجية ضمن

المصطلحات السيميائية، كالنظر إلى الأدوار التي يقوم بها شركاء التخاطب وأنماط الوجود السيميائي ووظيفته في إبراز الدلالة من حيث أنها عملية تشخيص لنشاط السلوك الإنساني، وكذا المستويات الموضوعاتية والصورية وذلك في إطار منظومة العمل التي تشتغل ضمن مسار توليدي يقوم بدور الوسيط بين المستويين المفهومي والصوري.

وبالتالي فمهما كانت طبيعة العلاقة التي تجمع بين المفهومين "السيميائيات والحجاج" فهو من غير اليسير أن نتوفر على هيكل عام يؤطر التنازع أو التلاحم بين المعرفتين، كما أن تناول موضوع الخطاب يرتكز على صيغ إنتاج المعنى من حيث هي فعل تلفظي ذو حضور لا يكون فيه لمحفل الخطاب القدرة على ممارسة اللغة ممارسة الية، هذه الصيغ تبدو ذات طبيعة حجاجية [36]

وفي هذا المجال نلاحظ بعضا من الاختلاف بين الاتجاهات السيميائية والحجاجية في الدراسات الفرونكفونية والانجلوسكسونية بخصوص العلاقة القائمة بين البلاغة والحجاج إذ تميل الدراسات الانجلوسكسونية إلى تغليب الحساب في البعد الاستدلالي والمنحى المنطقي على الجانب البلاغي ولكن بدرجات متفاوتة، فالحجاج ذو منزلة مركزية في المباحث الانجلوسكسونية التي تستوحي مصداقيته من الخضوع إلى بعض من المعايير العقلانية والمنطقية، وهو كثيرا ما يرتبط بالجدل الارسطي الذي يكاد يرادف الحجاج في الاستعمال من حيث انه يحتكم إلى السياق في عملية الشراكة التواصلية والتبادلات الحجاجية،[37] وفي هذا السياق يدعو جورج فينيو Georges Vignaux إلى التعامل مع الخطاب الحجاجي على الدوام بأنه مشهد بالنسبة إلى الآخر[38].

لقد كان الاهتمام المتزايد بالصور والأساليب من احد المكتسبات الكبرى في مجال علاقة السيميائيات بالحجاج، سواء في المقاربات الانجلوسكسونية أو في المقاربات الفرنكفونية عن طريق ترسيخ الحجاج في الخطاب، ومن ثم آمكن الحديث عن حجاجية الصور والأساليب، وهنا يمكن أن نشير إلى أن علماء اللغة وفلاسفتها والبلاغيون بقوا لحفنة من الزمن وهم يتساءلون عن طبيعة البلاغة ووظيفتها ومدى قدرتها على الانخراط في النشاط الحجاجي الذي لا يكتفي بمعالجة الحجج المجردة بعيدة عن السياق على الدوام، ولهذا انكبت كثير من الدراسات البلاغية والحجاجية على مدارسها بدئا من المحاولات الأولى مع خطابة أرسطو

وانتهاء بالبلاغة الجديدة مع بيرلمان وتيتيكا لطرح السؤال هل الصور البلاغية يمكن أن تؤدي دورا حجاجيا؟[39]

وفي هذا المجال نشير إلى أن جماعة مو Groupe Mu في جامعة لييج Liège البلجيكية قد اضفت اهمية ملحوظة على الدراسات البلاغية تعميما والصور البلاغية تخصيصا واخصبتها بالطرحين التداولي والسيميائي.

وفي الأخير يمكن أن نقول انه من غير الممكن أن نتصور الحجاج خارج مدارات السيميائيات، لان موضوع الحجاج يشترك معها في المنطلقات النظرية وفي مدارس الفعل الإنساني ونشاطاته، وبإمكاننا ان نؤكد ان التفكير الحجاجي ذو وجهة سيميائية قائمة على نسق مخصوص من العلامات الدالة عبر اختلاف مجالات السيميائيات التي تتجلى في المنطق والتواصل وبلاغة الإقناع، وان هذه المجالات تؤلف قوام السيميائيات والحجاج على حد سواء، لان نسيج النظريات الحجاجية تجسده العلاقة بين التفكير والمنطق واللغة، فأحيانا تكون العلاقة بين الحجاج والمنطق قائمة على التقابل وأحيانا أخرى تكون لها الإرادة لتوسيع مضايق المنطق وتارة أخرى تتخذ هذه العلاقة مسارا من العقلانية مغايرا للمنطق.

لم تعد البلاغة الجديدة في الدراسات الحجاجية مجرد زينة لفن القول وإنما صارت دالة على أحوال القوم ومقامات الكلام، وان كان الجدل قد تخلى عن السياق واختار مجال المجردات فان البلاغة لم تتخل عن قضايا التواصل والمنطق والتحريك، بل يمكن القول بأنها قد جددت علاقة المنطق بالواقع.

وعليه تحولت العلاقة بين البلاغة والحجاج إلى رهانات لا تكتفي بما تحققه الحسابات الذهنية، وإنما تتضمن قضايا الخطاب التي تنخرط فيها معارف كثيرة أبرزها السيميائيات وعلوم اللغة وعلوم الاتصال والفلسفة والنقد الأدبي والأسلوبيات والإشهار وكل ما له علاقة بالخطابات البصرية وغير البصرية.

الهوامش:

[1] Jean-Marie Klinkenberg, Précis de sémiotique générale,(ADAGP, Paris, 2006,) p. 259

[2] صالح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، (الكويت، دار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، اوت 1992)، ص64.

[3] المرجع نفسه، والمكان نفسه.

[4] المرجع نفسه، ص65.

[5] J. Kristeva, Sémiotiké, **Recherche pour une sémanalyse**,(Paris,éd. Seuil, 1969), p. 25.

[6] Olivier. REBOUL, **La Rhétorique**,(Puf , Que Sais-Je ? , 1989,) pp. 32-33

[7] Umberto Eco, **Sémiotique et Philosophie du langage**,(Paris éd. PUF, 1988), p. 11

[8] ابن منظور ، " لسان العرب "، مادة (حجج) ، ص : 570.

[9]Petit Robert, **Dictionnaire de la langue français**, 1er redection , paris , 1990 , P : 99

[10]Cambridge Advanced, **learner's dictionary** , Cambridge University Press 2nd Pub 2004, p56.

[11]Longman , **Dictionary of contemporary** English , Longman , 1989

[12] محمد رويض، **حول مفهوم الحجاج في الفلسفة–مقاربة فلسفية لسانية ديداكتيكية**، مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية فكرية، المغرب، عدد 26، 2000، ص38.

[13] ولقد حدد أبو بكر العزاوي الفرق بين الحجاج والبرهنة والاستدلال مع إعطاء الأمثلة لذلك، أبو بكر العزاوي، **اللغة والحجاج** ، العمدة في الطبع، ط 1، 2006، ص ص 15.18.

* إن كتاب " مقالة في الحجاج Traité de L argumentation لبيرلمان و زميلته تيتيكا ، يمثل – بالتأكيد حدثا في البحوث المعاصرة حول الروابط التي تجمع بين البلاغة واللغة ، ففي نظرهما أن الحجاج وجه من أوجه الخطاب الذي هدفه جلب تأييد ومساندة المستمع (المخاطَب).

[14]Meyer (Michel) : **Logique,langage et argumentation**, 2 ème Edition, Hachette Université. Paris , 1982., p 136.

[15]Georges. Vignaux, **l'argumentation : essai d'une logique discursive** , Genève :librairie Droz,1976, p 3.

[16]Gilles. Gauthier, **l'argumentation éditoriale : le cas des quotidiens québécois**, studies in communication sciences, 2002., p3.

[17]Ch .perelman., olbrechts. tyteca, **Traité de l'argumentation la nouvelle rhétorique** , Edition de l'Université de Bruxelles, 2008,p 92

[18]GeorgeVignaux , op.cit , pp 5-21.

[19]Philipe Breton, **l'argumentation dans la communication**, (la découverte, Paris, 2007).,P 6.

[20]Pierre Oléron**, l'argumentation**, (1er édition) collection, que sais-je ? (Paris : presse universitaires de France, 1983), P 4

[21]Ibid, P 14.

[22]Laurent, Godbout, **s'entraîner à raisonner juste**, (Paris : entreprise modernes éditions : librairies, techniques, 1989), P 66

[23]Ch. Pereleman, et L.Olbrechts tybeca, **op.cit,** P 50

[24]PierreOléron**,** op.cit, P 22.

[25] حافظ إسماعيلي علوي، **الحجاج مفهومه ومجالاته**،(الاردن: منشورات عالم الكتب الحديثة، إربد، 2010) ص273

[26]BretonPhilippe, op.cit. P 17.

[27]Philippe Cabin, **la communication : état des savoirs**,(paris : éditions, sciences humaines, 2000), p 160.

[28]J.M.Adam, **les textes, types et prototypes**, (Paris,nothan, 1992), p104.

[29]Christian .Plantin, **Essais sur l'argumentation**,(paris, édition Kimé, 1990), p146.

[30] رولان بارث ، **قراءة جديدة للبلاغة القديمة**،ترجمة عمر أوكان ، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011. ص 49.

[31]Joseph Courtés**, La sémiotique du langue**, Paris, Ed, Nathan, 2003, p88

[32]يعرفها مؤسسها الأول شارل بالي "علم يعنى بدراسة وقائع التعبير في اللغة المشحونة بالعاطفة المعبرة عن الحساسية"، لمزيد من المعلومات ينظر: محمد اللويمي، في الأسلوب والأسلوبية، مطابع الحميضي ط 1 ، ص 4.

[33]هي علم يهتم بالوظيفة الشعرية ليس في الشعر وحسب بل حتى في النثر، بحيث يدرجها تودوروف ضمن العلوم التي تهتم بالخطاب المكتوب والمنطوق بما فيه الخطاب السياسي والفلسفي لما لهذه الخطابات من صلة وطيدة بالخطاب الأدبي، لمزيد من المعلومات ينظر: تزفيتان تودوروف، **الشعرية**، ترجمة: شكري المبخوت ورجاء سلامة، (المغرب، دار توبقال، 1987.) ص 06

[34]تزيفتان تودوروف، **الأدب والدلالة**، ترجمة: محمد نديم خشفة،(حلب، 1996)، ص91

[35]بيير غيرو ، **الأسلوب والأسلوبية**،، ترجمة منذر عياشي (ط 1 ، منشورات مركز الإنماء القومي، 1985)، ص 29.

[36] Jacques Fontanille, **Sémiotique du discours**, éd, Limoges, PULIM, 2 édition, 2003, p81.

[37] Meyer, Michel, **Qu'est-ce que l'argumentation**,(Paris, éd, Librarie philosophique, P, Vrain, 2005), p116.

[38] George Vignaux, op.cit p72.

[39]لعل من ابرز من اهتموا بحجاجية الصور نجد بونهوم Bonhomme في المجال السردي وجاك دوران Jacques Durand في مجال الصورة الاشهارية .

Bonhomme, Marc, Pragmatique des figures du discours, Paris, éd, Champion, 2005, p178.

Jacques Durand, rhétorique et l'image publicitaire, in communication n15 , 1970, p70 /95.